(الأقمار الاصطناعية والقرآن الكريم)

إن القرآن الكريم قد تنبأ قبل ١٣٧٧ سنة عن نفوذ الإنسان بقوة وسلطان من أقطار الأرض إلى أقطار السموات وبالعكس وعن اجتماع سكانهما معا الذي ينطبق على ما حصل في هذه الأيام من ظهور الأقمار الاصطناعية التي تصحبها الصواريخ الموجهة إلى الأقطار الأرضية والسماوية.

قال تعالى في سورة الشورى آية ٢٩ (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير). وقال في سورة الرحمن آية ٢١ (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) أي إلا بقوة كما حصل في هذا الزمان.

والجن هم ذووا الأعمال الغريبة الدقيقة الخفية، وهذا يصدق على الخبراء من الناس أرباب الاختراعات العظيمة التي يريدون أن لا يطلع عليها أحد حيث أنهم يعملونها في نفق من الأرض خفية ولا يظهرونها إلا بعد إتمامها وبعد لزومها، كما يصدق أيضا على الجن من غير الناس حسب المعنى المشهور.

والإنس هم من يستأنس بهم من الناس الذين تكون أعمالهم ظاهرة سافرة بلا تستر ولا استخفاء، وهذا المعنى لا ينافي أنه يوجد جن من الناس كما يوجد جن من غير الناس كما تقدم.

وعليه فكأن هذه الآية تقول: يا معشر الناس من الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض بقوتكم وسلطانكم ومعرفتكم واختباركم فانفذوا فإن الله تعالى يهيئكم لذلك وييسره لكم. ولكن هذا العمل لا تستطيعه إلا لدول الكبيرة والممالك العظيمة الغنية بالمال القادرة على استحضار مواده وآلاته وسائر لوازمه ومعداته. وقد استطاعت الدول الكبرى أن تفعل ذلك بواسطة علمائها وخبرائها وبقوتها وسلطانها فاخترعت الأقمار الاصطناعية والصواريخ الموجهة المسماة بالأقمار والصواريخ الموجهة التي تنفذ من الأرض إلى القمر ومنه إلى المريخ وهكذا، وبهذا يمكن الاجتماع والتعارف والتعاون والتفاهم بين سكان الأرض وسكان السموات.

وهذا ما تنبأت به آية الشورى السابقة القائلة (ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) أي متى يشاء لان كلمة (إذا) قد أتت بمعنى (متى) في كثير من آيات القرآن فهذه الآيات تفيد أن دواب الأرض أي ما يدب عليها من الناس سيجتمعون بدواب السماوات أي ما يدب عليها من إنسان وغيره، وهي تؤكد وتؤيد الآية القائلة (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) أي إلا بسلطة وقدرة وعلم واختبار وعليه فهاتان الآيتان قد تنبأتا قبل ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين عاما بما حصل الآن، وهذا من معجزات القرآن.

وقد كنت فهمت في هذه الآية قبل ظهور الاقمار الاصطناعية فهما آخر ذكرته في الجزء الأول من كتابي (آراء حرة) ص ١٨٦ وهو فهم معقول موافق أيضا للحالة الحاضرة، وهذان الفهمان قد حصلا فعلا في هذا الزمن وهذا هو نص الفهم الثاني: يحتمل أن يكون المراد من الجن هنا هم الجواسيس الذين يختفون عن الناس في أعمالهم وأغراضهم ومقاصدهم وسفسدون بين الناس والناس لا يشعرون ويسلطون بعضهم على بعض وهم لا يفقهون كما يحصل الآن من أعال الدول مع بعضهم بعضا ومن أعمال الأفراد مع بعضهم أيضا والمراد من الإنس هنا هم من كانت أعمالهم وأغراضهم ومقاصدهم سافرة ظافرة لا خفاء فيها يعملها الناس ويأنسون بها لكونهم يظنون نفعها وفائدتها ولكنها في الواقع مضرة بهم مفسدة لشأنهم كما يحصل الآن من زعماء هذا لازمان الذي يعملون الأعمال ظانين صلاحها وفائدتها ولكنهم لجعلهم وعدم تدقيقهم في الأمور يقعون فيما لا مخرج لهم منه ول منفذ لهم من الابتعاد عنه.

هذان الصنفان من الناس أي أرباب المفاسد الخفية وأرباب الأخطاء الناشئة من الجهل بالأمور السياسية يخاطبهم الله بقوله (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض) أي فرارا من عاقبة أعمالكم ومن نتيجة

جهلكم، وعدم إخلاصكم (فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان أي إلا بقوة جبارة تتسلط عليكم فتبدل من أخلاكم وتصلح من شئونكم جبرا عنكم، وهذه نعمة من الله إليكم وحينئذ (فبأي آلاء ربكما تكذبان) أي فبأي نعمة من نعمه تكذبان.

ولما كان قوله تعالى في صدر هذه الآية (سنفرغ لكم أيها الثقلان) قد يكون تهديدا ووعيدا بعذاب شديد جديد غير العذاب المعهود لديهم قال تعالى في بينا هذا العذاب الجديد الشديد (يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس لا تنتصران) وشواظ النار أي اللهب الشديد من النحاس ينطبق تمام الانطباق على القنابل المعروفة الآن المتكونة من نار البارود والنحاس المرسلة تارة من البوارج والمدمرات البحرية وأخرى من الصواريخ والطائرات الجوية أي ومن يرسل عليه ذلك ولا يملك نظيره للمدافعة والمقاومة فلا ينتصر على عدوه انتهى ما كنا ذكرناه في الجزء الأول.

والآن نريد أن نفسر ما يتعلق بموضوعنا هذا من سورة الرحمن مع حذف آية (فبأي آلاء ربكما تكذبان) المتكررة في هذه السورة قال تعالى عقب قوله (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) الذي فسرناه سابقا. قال تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان يومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) قال المفسرون في معناها أي أن السماء المعروفة إذا تصدعت يوم القيامة وخرجت وذابت حتى صارت كالوردة في الحمرة وكالدهن في الذوبان من حرارة جهنم وقالوا إن جواب الشرط محذوف لتهويل الأمر أي ليفرض السامع بعده كل أمر هائل وقالوا أن في موقف من مواقف يوم القيامة (لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) لأنهم يعرفون في هذا الموقف بسيماهم. وأما قوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين) فهو في المواقف الأخرى هذا محصل ما قاله المفسرون.

(ما أفهمه في ذلك)

أقول يحتمل ن يكون انشقاق السماء حتى يصير وردة كالدهان حاصلا في الدنيا أيضا بسبب شواظ نار الصواريخ الموجهة المصاحبة للأقمار الاصطناعية ونار الطائرات والقنابل الذرية ونحوها من المخترعات الحديثة في الحروب الجوية لأن الجو يسمى سماء أيضا وعليه فتكون هذه الآية مرتبطة تماما ومترتبة فعلا على الآية التي قبلها ويكون كل من معنييها حاصلا في الدنيا بخلاف تفسير المفسرين مع كونه بعيدا يجعل هاتين الآيتين متنافرتين.

بل إنني أقول أر السماء في اللغة هو كل ما ترتفع سواء كان حسيا كسماء الشمس والقمر والمريخ وغيرها من بقية الكواكب وكسماء الغمام والسحاب والمطر أو معنويا كسماء العلم والفضل والدين ونحو ذلك وكثيرا ما يطلع القرآن لفظ السماء أو السماوات ويريد السماوات المعنوية تشبيها لها بالسماوات الحسية وليس هناك سماء بمعنى الجرم المحيط كما يتوهم كثير من الناس لأن هذا الذي نراه فوقنا إنما هو جو وفضاء لا نهاية له تسير فيه السماوات المسماة بالشمس والقمر والمريخ وزحل وباقي الكوكب في مداراتها المخصوصة بها كما قال تعالى في سورة يا سين آية ٤٠ (وكل في فلك يسبحون) فإذا قلتم المراد انشقاق السماء الحسي ونقول لكم أي سماء تريدون من هذه الكواكب هل الشمس؟ أم القمر؟ المريخ؟ أم غيرها؟ والقرآن لم يخصص واحدا منها ونقول أيضا ما هي مناسبة انشقاق كوكب من هذه الكواكب لعدم سؤال إنس عن ذنبه ولا جان وما هي مناسبة الذنوب للسموات الحسية.

(ما أفهمه في معنى انشقاق السماء)

ولهذا فإني أقول يحتمل أيضا أن يراد بانشقاق السماء هنا انشقاق سماء الدين وانفصاله عن القلوب كما يقال انشق فلان عن الجماعة أي انفصل عنهم فانشقاق سماء الدين هو عبارة عن انفصاله عن أرض القلوب وارتفاعه عنها كما هو وارد في الحديث من أن الدين والقرآن يرتفعان في آخر الزمان (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) أي في ذلك اليوم الذي يرتفع فيه الدين وينشق وينفصل عن قلوب الناس أجمعين لا يسأل أحد عن ذنبه أي لا يقال له لما فعلت هذا الذنب لأن الناس كلهم يكونون مغمورين بأنواع الخطايا والذنوب منغمسين في سائر الفواحش والعيوب (لا يتناهون عن منكر فعلوه) وعلى تفسيرنا هذا يصح أن يكون قوله (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) جوابا للشرط في قوله (فإذا انشقت السماء)

ويظهر وجه ترتب عدم سؤال أحد عن ذنبه على انشقاق المساء بخلافه على تفسير المفسرين حيث اضطروا على مقتضى تفسيرهم أن يجعلوا جواب الشرط محذوفا ويظهر أيضا معنى قوله (فكانت وردة كالدهان) لأن معنى وردة حينئذ المرة من الورود أي الدين في ذلك الوقت إنما يرد على قلوب الناس ورودا فقط بلا استقرار فيها ولا تمكن بل يكون كالدهان فقط أي كالطلاء بالدهان لا ثبات له ولا بقاء أي فيوم أن يكون الدين كذلك لا يتناهى الناس عن المناكر ولا يسأل أحدا منهم أحدا لم فعلت هذا الذنب لأن السائل والمسؤول سواء في ارتكاب المعاصي وفي الاستهتار بالدين وعدم المبالاة به لأنه انشق عن قولبهم وانفصل عنها وارتفع من بينهم.

أما المفسرون فقد قالوا في معنى قوله (فكانت وردة كالدهان) أن السماء تكون يوم القيامة من شدة حرارة نار جهنم كأنها وردة أي كالوردة في الحمرة وكالدهان أي دهن الزيت في الذوبان والسيلان من شدة الحرارة ولا يخفي ما في ذلك من البعد إذ أن نار جهنم الموجودة في الأرض الصغيرة جدا بالنسبة للمساء وإن كانت كافية لحرق الإنسان العاصي إلا أنه يبعد أن تكون كافية لإذابة السماء الذي هو أكبر منها بملايين المرات والذي يبعد عنها خمسماية عام والذي سمكة خمسماية عام أيضا كما هو وارد في الحديث.

ثم قال تعالى (ويعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) قال المفسرون يعرف المجرمون يوم القيامة بعد خروجهم من القبور بسيماهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون وقيل الكآبة والحزن وقيل العمى والصمم والبكم فيأخذ بنواصيهم وأقدامهم ويجمع بعضها إلى بعض من وراء ظهورهم فتخرج صدورهم نتأ وقيل من جانب وجهوهم فتكون رؤوسهم على ركبهم وقيل يسحبون سحبا فبعضهم يجر برجله وبعضهم يجر من ناصيته إلى المحشر.

أقول:ويحتمل أن يكون معنى قوله (يعرف المجرمون بسيماهم) أي سمتهم في الدنيا وهي كثرة المداومة على الذنوب والفواحش والشهوات فيها تدل عليهم وأن انقسامهم على أنفسهم وتباغضهم وتحاسدهم ينم عنهم وأن تدهورهم وسقوطهم وانحطاطهم واضمحلالهم ينادي بهم فيعرفهم بذلك جميع الأمم فيؤخذ بالنواصي والأقدام أي تذل حينئذ وتهان نواصيهم وجباههم ورؤوسهم من طرف الأمم الطامعة فيهم وتغل أقدامهم أيضا فلا يستطيعون السير في مصالحهم لا السعي فيما يرقيهم بسبب ضغط الأمة الحاكمة لهم القائمة على رؤوسهم.

ثم قال تعالى (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) قال المفسرون يوجد هنا كلام مقدر أي يقال لهم يوم القيامة هذه جنهم فيطوفون أي يترددون بين جهنم وبين حميم آن أي ماء حار متناهي في الحرارة فالمجرم يعاقب بين تصليه النار وشرب الماء الحار.

أقول: إنه على تفسيرنا لا يحتاج الكلام إلى تقدير شيء يرجع إليه اسم الإشارة بل إن اسم الإشارة راجع لما ذكره الله قبلها بقوله (يؤخذ بالنواصي والأقدام) أي إن الأخذ بالنواصي والأقدام أي الذل والاستعباد هو نفسه جهنم التي يكذب بها المجرمون الجانون على أنفسهم وعليه فلا لزوم لتقدير شيء يرجع إليه اسم الإشارة مع وجود ما يرجع إليه في نفس الآية ومما يدل على أن مرجع الضمير إنما هو شيء في الدنيا التعبير بالفعل المضارع في قوله (يكذب) الذي يفيد التجدد وأن التكذيب موجود إلى وقت التكلم فلو كان المراد يوم القيامة لقال (التي كذب بها المجرمون لأن يوم القيامة لا يبقى فيها مكذب.

ومعنى (يطوفون بينها وبين حميم آن) أي أن هؤلاء المستذلين المستعبدين يتقلبون وينتقلون من عذاب نار الذل والاستعباد إلى (حميم آن) أي ما يحكم الظهر ويثقله من التكاليف والضرائب الآنية أي الحاضرة المستعجلة التي لا أناة فيها أو إلى شرب ما يصهر بطونهم من أنواع الهموم والأحزان والمكائد. والمقصود أنهم يتنقلون من نوع من العذاب إلى نوع آخر منه ثم قال تعالى (ولن خاف مقام ربه جنتان) قال المفسرون أي جنة للإنس وجنة للجن وقيل جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي وقيل جنة هي جزاء وجنة أخرى زيادة عن الجزاء وقيل جنة جسمية وجنة روحية وقيل جنة لشخصه وذاته وجنة أخرى لأزواجه وخدمه.

أقول ويحتمل أن يكون المارد من الجنتين جنة في الدنيا وجنة في الآخرة كما أن جهنم كذلك جهنم في الدنيا وجهنم في الآخرة كما هو مشاهد ومحسوس بالفعل ويحتمل أني كون المراد من الجنتين نوعين من النعيم كنوعي العذاب أيضا الذي ذكرهما الله في قوله (يطوفون بينها وبين حميم آن) أي كما أن المجرم ينتقل من نوع من العذاب إلى نوع آخر منه فكذلك لمن خاف مقام ربه فإنه ينتقل من نوع من النعيم إلى نوع آخر منه وعلى كل فالله أعلم بمراده.